سلسلة حكايات قرآنية (٢)

ناقــةُ اللّــهِ

إعداد

منصور علي عرابي

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أيَّدَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - رُسلَهُ - صَلواتُ اللهِ عليهِمْ وتسليمَاتُهُ - بمعجزاتٍ خارقةٍ للعَادَةِ، تدلُّ على صِدقِ رسَالتِهِمْ، كما تدلُّ على قدرةِ اللهِ العظيمةِ التي ليسَ لهَا حُدودٌ.

وناقةُ صَالحٍ وَاحدةٌ من هذه المُعجزاتِ الخارقةِ، أيَّد اللهُ - عزَّ وجلَّ - بِهَا نبيَّه صَالحًا - عَلَيهِ السَّلامُ -، وذلكَ لأنَّ قَومَهُ ثَمودَ كذَّبُوه، وجَحدُوا رسَالتَهُ، وهُم الذينَ طَلبوا منهُ هَذه النَّاقةَ لتكونَ دَليلًا على صِدقِهِ، وأعطَوْهُ المواثيقَ المؤكَّدةَ أنْ يُؤمِنُوا بهِ وبرسالتِهِ إن استطاعَ أن يُخرجَ لهم هَذه النَّاقةَ مِن وَسَط صَخرةٍ في الجبلِ، فلمَّا أخرجَها اللهُ لهُمْ ما آمنَ بهِ إلا قَليلٌ، ثُمَّ اعتدَوْا عليهَا وقتلوهَا، فأهلكَهُمُ الله.

وفي هَذا الكتابِ نتعرَّفُ عَلى قُدرةِ اللهِ - جلَّ جلالُهُ - في خلقهِ لهذِه النَّاقةِ العَظيمةِ، ومَا فعلَهُ قومُ ثَمودَ معهَا، وكيفَ قتلُوهَا، ومَا كانَ جَزاؤهم إزَاءَ كُفرِهِمْ وشِركِهِمْ.

دَعوةٌ.. وإِرْشَادٌ

في مَنطقةٍ تُسمَّى «الحِجْرَ» بجزيرةِ العربِ، بينَ الحجازِ وتَبوكَ، كانَ يسكنُ قَومُ ثَمودَ، وهُمْ قومٌ أَشِدَّاءُ أقوياءُ، زادَهُمُ اللهُ بسطةً في الجسمِ والرزقِ، فعمَرُوا الأرضَ، وزرعُوها، وفجَّرُوا فيهَا العيونَ، وغرسُوا الحَدائقَ والبَساتِينَ، وشيَّدُوا لأنفسِهِمْ قُصورًا لا مثيلَ لهَا، وبلغُوا من القوَّةِ ما يمكِّنُهم من نَحتِ البيوتِ في الجبالِ، وعَاشُوا في سَعةٍ من العيشِ لا تُوصَفُ، ورغدٍ كَبيرٍ لا يُجارى، ونعمةٍ وتَرفٍ تُوجبانِ الحَمدَ والشُّكرَ للهِ على ما أنعمَ عليهِمْ، ولكنَّهُم قَابلوا ذلكَ النَّعيمَ بالجحودِ والإنكارِ، وبَدلًا مِن أن يتوجَّهوا للهِ بالحمدِ والسُّجودِ لهُ، نَجِدُهُمْ أنكَرُوا وجودَ اللهِ، واتَّجَهُوا في العبادةِ والشُّكرِ إلى أصنامٍ وتماثيلَ صنَعوها بِأيديهِمْ، وأَفسدوا في بلادِهِمْ، فنشرُوا فيها الفُسوقَ والمجونَ، وكثرَ فيها الكفرُ والشركُ والمَعَاصِي والآثامُ.

ومَا كانَ للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُعذِّبَ قومًا حتَّى يُنذرَهم، ويُقيمَ عليهِم الحجَّةَ والبرهانَ، حتَّى لا يكُونَ لهُمْ عُذرٌ بعدَ ذلكَ، فأرسلَ اللهُ إليهمْ رَجلًا منهُمْ، عُرفَ بينهم بالتَّقوى والهدايةِ، وهو صَالحُ بنُ عُبيد ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ، فدعَاهُمْ إلى

توحيدِ اللهِ، وعبادتِهِ، ونبذِ عبادةِ الأصنامِ، قالَ تعالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وراحَ صَالحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - يُخبِرُهم بنعمِ اللهِ عليهِمْ، ليؤكِّدَ لهُمْ أنَّ اللهَ - وحدَهُ - هُوَ الذي يَستحقُّ العبادةَ والتقرُّبَ إليهِ، فقالَ لهُمْ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وكانَ أجدرُ بهم أنْ يَسمعوا نَصيحةَ نبيِّهم صَالح - عَلَيهِ السَّلامُ -، خَاصَّةً وأَنَّهُ كانَ معرُوفًا بينهم بالحكمةِ والنَّقاءِ والخيرِ، وكانُوا يحترمونَهُ قبلَ أن يُوحيَ اللهُ إليهِ، ويُرسلَه بالدعوةِ إليهِمْ، ولكنَّهم فُوجئُوا بهذهِ الدَّعوةِ، وعزَّ عليهِمْ أنْ يتَّهِمَهُم صَالحٌ بالضَّلالِ، ويتَّهم آلهتَهُمْ بأنَّها لا قيمةَ لهَا، وينهاهُمْ عَن عبادتِهَا، والتقرُّبِ إليهَا، فاعترضُوا على دعوتِهِ، وعَاندُوهُ، وقالُوا لهُ مستنكرينَ: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢].

فاستمرَّ صالحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - يَدعُوهُم إلى اللهِ، ويرشدُهُمْ إلى مَا فيهِ خَيرُهم في الدُّنيا والآخرةِ، وراحَ يُذكِّرُهم بنِعَمِ اللهِ

عَليهِم، ويؤكِّدُ لهُم أنَّهُ رسولُ اللهِ إليهِمْ، فقالَ لهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٣ ـ ١٥٢].

ورَغْم هَذا البَيانِ الوَاضِحِ، والقَولِ الفَصلِ والدَّعوةِ الخَالِصَةِ، فإنَّ قَومَ ثَمودَ ظلُّوا على كُفرِهم وعِنادِهم، وأخذُوا يُجادلونَ نبيَّهُم صَالحًا ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ بِالباطلِ، ويتَّهِمُونَهُ بالسَّفَهِ والجُنونِ والكَذِبِ، وقالُوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤ ـ ٢٥].

الدَّلِيلُ الصَّادِقُ

أرادَ قومُ ثَمودَ أنْ يمنعُوا صَالحًا عن استمرارِ دَعوتِهِ، فاجتمَعُوا يَومًا في نَادِيهِمْ يُفكِّرُونَ كيفَ يعجزونَهُ ويُظهرونَ للنَّاسِ أنَّهُ كذَّابٌ، فاتَّفقُوا على أنْ يَطلُبُوا منهُ دليلًا على صدقِهِ،

وبُرهَانًا على نبوَّتِهِ، وأنْ يكُونَ هذا الدَّلِيلُ أمرًا مُستَحيلًا، لا يُمكنُ أن يكونَ، ثُمَّ راحُوا يُفكِّرُون في مَطلبِهم ذلكَ، فَأشارَ بعضُهم بأنْ يطْلُبوا منهُ أنْ يُخرِجَ لهُمْ مِنْ صَخرةٍ كَبيرةٍ في الجبلِ نَاقةً عَظيمةً، مَهيبةَ الخلقِ، يرونَها بأعيُنِهِم وهي تخرجُ من الصَّخرةِ، وتعيشُ بينَهُمْ، فاستحسنُوا جَميعًا هذه الفكرةَ، ورأَوْا أنَّـهُ أمرٌ يستحيلُ أنْ يَحدُثَ، وبالتَّالِي يظهرُ أمامَ النَّاسِ أنَّ صَالحًا ليسَ بنبيٍّ وإنَّما هُو رَجُلٌ مُدَّعٍ مَجنونٌ كذَّابٌ، فضَحِكُوا جَميعًا وراحُوا يسخرونَ ويستهزِئُونَ، معتقدينَ أنَّ ربَّ صَالحٍ لن يستطيعَ أنْ يأتِيَ بما يطلبونَ، لأنَّهم كانُوا كَفرةً مشركينَ لا يعلمونَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وأنَّ أمرَهُ بينَ الكافِ والنُّونِ، إذَا أرادَ شَيئًا يقولُ لَـهُ: كُنْ، فيكُون.

وفي اليومِ التَّالي اجتمعُوا في ناديهِمْ، فجاءَهُمْ رسولُ اللهِ صَالحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ يدعوهُمْ إلى اللهِ، ويذكِّرُهم ويُحذِّرُهم، فقالُوا لهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

وكانَ صَالحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ يعلمُ أنَّ نزولَ آيةٍ أمرٌ عَظيمٌ وشديدٌ، لأنَّـهُ لو نزلَتِ الآيةُ ثم استمرُّوا على كُفرِهم وشِركِهِمْ

فسوفَ يُنزِل الله عليهِمُ العذابَ الشديدَ، ولن يَنفَعَهُم شَيءٌ حينَ ينزلُ العذابُ، فراحَ صَالحٌ يحذِّرُهم من نزولِ الآياتِ، ويَعِظُهُمْ بأنَّ ذلكَ أمرٌ شَديدٌ لن يُطيقُوهُ، وأنَّ في السماواتِ والأرضِ آياتٍ كَثيرةً تدلُّ على قُدرةِ اللهِ الواحدِ الأحد، يجبُ أن يعتبرُوا بهَا، ويتفكَّروا فيهَا، ويؤمنُوا باللهِ صَاحبِ هَذه الآياتِ وتلكَ النِّعمِ، ولكنَّهم أصرُّوا عَلى موقفِهِمْ، وألَحُّوا في طلبِ آيةٍ أو مُعجزةٍ تدلُّ على صدقِهِ ونُبُوَّتِهِ، فلمَّا رأَى إصرارَهُمْ أخَذَ عليهِمُ العُهودَ والمواثيقَ الشَّدِيدةَ إذَا جاءَتْهُم الآيةُ التي يُريدُونَ أنْ يُسلِمُوا للهِ الواحدِ، ويؤمنُوا بأنَّهُ رَسُولٌ من عندِ اللهِ لهُمْ، فأعطَوْهُ عهودَهُمْ ومواثيقَهُمْ عَلى ذلكَ، وأكَّدُوا لَهُ أنَّهُ لو نفَّذَ طَلَبَهُمْ أنْ يُؤمِنُوا معهُ، ويُصدِّقُوه، ويترُكُوا عبادةَ الأصنامِ والأوثانِ، ويتوجَّهوا بالعبادةِ للهِ الذي يَدعُوهُمْ إليهِ.

فلمَّا أخذَ عليهِمُ العهودَ والمواثيقَ سألَهُمْ: ومَا الآيةُ التي تُريدُونَها؟ فقالُوا: انظرْ إلى هذه الصَّخرَةِ التي في بطنِ الجبلِ. فنظرَ إليهَا صَالحٌ ثُمَّ سَألهم: ومَاذَا بِهَا؟ فأشارُوا إليهَا وقالُوا: نريدُ أنْ يُخرِجَ لنَا ربُّكَ من هذه الصَّخرةِ نَاقةً عُشَراءَ طويلةً، صفتُهَا كذَا وكذَا.. فقالَ لهُمْ: أرأيتُمْ إنْ أُجِبْتُمْ إلى ما سَألتُمْ

على الوجهِ الذي طَلبتُمْ أتؤمنونَ بما جِئْتُكُمْ بهِ وتُصدِّقُونَنِي فيمَا أُرْسِلْتُ بهِ؟ قالُوا: نَعم. فأخذَ عليهم عُهودَهُم ومواثِيقَهُم عَلى ذلكَ، ثُمَّ قامَ إلى مُصلاه، فصلَّى لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ودعاهُ أن يُجيبَهُم إلى مَا طلبُوا.

خُروجُ النَّاقةِ

فلمَّا دعَا صَالحٌ ربَّهُ أنْ يُخرِجَ لهُم نَاقةً من الصَّخرةِ بالأوصافِ التي طَلَبُوهَا أوحى اللهُ إليهِ: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

ومَا هي إلَّا لحظاتٌ، ثُمَّ انشقَّتِ الصَّخرةُ بأمرِ ربِّها، والقومُ واقفونَ ينظرونَ إليهَا، ويُشاهِدُونَ بأعيُنِهِمْ معجزةَ اللهِ العَظيمةَ، ومِن قلبِ الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ تخرجُ نَاقةٌ عُشَراءُ، مَهيبةُ المنظرِ، بهَا كلُّ المُواصَفاتِ التي طلبَها قومُ ثَمودَ، وكأنَّها صُنِعَتْ وخُلِقَتْ لهم خِصِّيصًا على الوجهِ الذي أرادوهُ تمامًا، وبالسِّماتِ التي حدَّدُوها بالضبطِ، ووقفَتْ أمامَهم، ينظرونَ إليهَا في دَهشةٍ وذُهولٍ، وقَدْ أخذَ منهُمُ العَجَبُ كلَّ مَأخَذٍ، وأصبحَ أمامَهُمُ الدَّليلُ الصَّادقُ والبرهانُ النَّاصعُ على صدقِ صالحٍ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ، وحقيقةِ رسالتِهِ.

وأمامَ هذهِ المُعجزةِ الخارقةِ آمنَ بعضُ النَّاسِ من قومِ ثَمودَ، وصدَّقُوا رسولَهُمْ، فشَهِدُوا شَهادةَ الحقِّ، ونطقُوا بالوحدانيَّةِ للهِ القَادرِ العظيمِ؛ بينمَا نقضَ مُعظمُ القومِ العهدَ، وغدرُوا، وخَانُوا المواثيقَ التي أخذَهَا صَالحٌ عليهِمْ، وظلُّوا على كُفرِهم وعِنادِهم، واتَّهمُوا صَالحًا بالسِّحرِ والكهانةِ، ولَمْ يقفُوا عِندَ هذا الحدِّ بل نَاصبُوا صَالحًا والذينَ آمنُوا معهُ العِداءَ، واستمرُّوا في إيذائِهِمْ والتعرُّضِ لهم بالقولِ والفعلِ.

النَّاقةُ في أرضِ ثمودَ

أوحَى اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى صَالحٍ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ بألَّا يتعرَّضَ أحدٌ من قومِهِ للنَّاقةِ بسوءٍ، ويخبرَهم بأنَّ ماءَ الآبارِ قِسمةٌ بينَهُمْ، بمعنى أنَّ النَّاقةَ تشربُ الماءَ يومًا، وهُمْ ودوابُّهم يشربونَ يومًا آخرَ، فيأخذُون في يومِهِمْ ما يَكفيهِمْ يومينِ، واليومُ الذي تشربُ فيه النَّاقةُ الماءَ تعطيهم من لبنِهَا مَا يكفي شَرابَهُم لبنًا سائغًا، فقامَ صالحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ يُخبرُ قَومَهُ بذلكَ، فقالَ لهُمْ: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقالَ لهُمْ أيضًا: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

واتَّفَقَ الحالُ على أنْ تَبقى هذهِ النَّاقةُ بينَهُمْ، تَرعى حيثُ شَاءتْ مِن أرضِهِمْ، وتَردُ الماءَ يَومًا بعدَ يومٍ، وكانَتْ إذَا وردَتِ الماءَ تشربُ ماءَ البئرِ يومَهَا ذلكَ، فكانُوا يرفعونَ حَاجَتَهُم من الماءِ في يَومِهم لغَدِهِمْ، كمَا كانُوا يشربونَ من لبنِهَا كِفايَتَهم في اليومِ الذي تَشربُ فيهِ الماءَ، فقَدْ كانَتْ ناقةً غيرَ عَاديّةٍ، ولذلكَ سَمَّاهَا صالحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ: «نَاقَةَ اللهِ»، وذلكَ تَشريفًا لهَا، لأنَّها كانَتْ مُعجزةً مِنْ عندِ اللهِ. وكانَتِ الحيواناتُ تَخافُ مِن هذهِ النَّاقةِ، فكانَتِ الناقةُ إذَا خَرجَتْ تَرعى في مكانٍ تركتهُ الحيوانَاتُ لهَا، وإذَا نامت في مكانٍ هجرتهُ كلُّ الحيواناتِ الأُخرى.

المؤامرةُ الشَّيطانيَّةُ

عاشَتِ النَّاقةُ بين قَومِ ثَمودَ، تَرعى وتَشربُ الماءَ، ويزدَادُ عددُ المؤمنينَ يَومًا بعْدَ يومٍ، فشعرَ الكافرونَ بخَطَرِهَا عليهِمْ،

وتحوَّلَتِ الكراهيةُ والحقدُ في قلوبِهم عَن صَالحٍ إلى النَّاقةِ المُباركةِ، وبَدأتْ عُقولُهمُ الخبيثةُ تفكِّرُ في كيفيةِ الخلاصِ من هَذا الدَّليلِ الصَّادقِ على ضَلالِهم وغَيِّهم، فاجتمعَ سادتُهم يَومًا، وبدَأ الشيطانُ يُزيِّنُ لهُمُ المؤامَرَةَ، وينسجُ لهم خيوطَهَا، فاتَّفقَ رأيُهُمْ عَلى أنْ يقتُلُوا هذه النَّاقةَ، ليستريحُوا منها، ويتوافر عليهم الماءُ، ويقضُوا بذلكَ على البُرهانِ السَّاطعِ الذي يُؤكِّدُ صِدْقَ صَالحٍ ونبوَّتِهِ، ولكنَّهم عَزمُوا قبلَ هذا أنْ يأخُذُوا رأيَ جَميعِ القومِ، حتَّى يكُونَ ذلكَ باتِّفاقٍ من الجميعِ، وعَن رِضًا من كلِّ القومِ إلَّا القِلَّةَ القَليلَةَ المُؤمنةَ مع صَالحٍ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ.

وبالفعلِ قامَ الزُّعماءُ يدخلونَ كُلَّ بيتٍ من بيوتِ الكُفرِ، ويسألونَ كُلَّ شيخٍ وشَابٍّ وامرأةٍ وطفلٍ عن رأيِهِ في قتلِ النَّاقةِ، ويسعونَ في القبيلةِ يُزيِّنُونَ للنَّاسِ هذا الفعلَ، ويُحسِّنُونَ لهُمْ عَقْرَ النَّاقةِ، فأجابَهم الجميعُ إلى ذلكَ، ورَضُوا بهذَا الفعلِ الشَّنِيعِ والعملِ القبيحِ عن حبٍّ وهوًى منهم، فأصبحَ الجميعُ وكأنَّهم مشتركونَ في هذِه المؤامرةِ الشَّيطانيَّةِ، ومنفِّذُونَ لهَا عَن رضًا واقتناعٍ.

قَتْلُ النَّاقَةِ

بعدمَا اتَّفقَ الجميعُ على عَقرِ النَّاقةِ، ووَضعَ السَّادةُ الخُطَّةَ لقتلِهَا، جاءَ وقتُ التَّنفيذِ، ووقعَ الاختيارُ على اثنينِ أنْ يقومَا بهذهِ المُهمَّةِ، وهمَا: «قَدارُ بنُ سَالِفٍ» و«مَصرعُ بنُ مَهرجٍ»، وراحَ القومُ يفكِّرُونَ كيفَ يُقنِعُونَ هذين بتنفيذِ مَا يُريدُونَ، فرأَوْا أنّ المالَ والنِّساءَ خَيْرُ وَسيلةٍ لِترغيبِهِمْ في هَذا الأَمرِ، وكانَ في قَومِ ثَمودَ امرأتَانِ: إحداهُمَا تُسمَّى «صَدُوق»، وكانَتْ ذاتَ حَسبٍ ومَال وجَمالٍ، وكانَتْ مُتزوِّجةً مِنْ رَجلٍ أسلمَ مع نبيِّ اللهِ صَالحٍ ففارقَتْهُ، وكانَتْ ابنةَ عمِّ «مَصرع»، فعرضَتْ عليهِ نفسَهَا إنْ هوَ عَقَرَ النَّاقةَ. وكانَتِ المرأةُ الثَّانيةُ تُسمَّى «عُنَيزَة»، وكانَتْ عَجوزًا كافرةً، لها بناتٌ أربع، فعرضَتْ بناتهَا على «قَدارٍ» إنْ هُو عَقَرَ النَّاقةَ فلهُ أيُّ بناتِهَا شاءَ، فوافقَ هذانِ الشَّابانِ، واستجابَ لهُمَا سَبعةٌ آخرونَ فصارُوا تِسعةً، وهُم الذينَ قالَ عنهُمْ اللهُ - عزَّ وجل -: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

وذاتَ صَباحٍ.. كانَ هؤلاءِ النَّفرُ يَرصُدونَ النَّاقةَ، فلمَّا

خَرجَتْ من مكانِهَا رماهَا «مَصرعٌ» بسهمٍ، فأصابَها في سَاقِها، فأسرعَ «قَدارُ بنُ سَالفٍ» إليهَا بسيفِهِ، فضَرَبَها في السَّاقِ التي أُصيبَتْ، فسقطَتِ النَّاقةُ على الأرضِ، ورغَتْ رغاةً واحدةً عظيمةً، فطَعَنَها «قَدارُ» في رقبتِهَا، ثُمَّ نحرَهَا فقتَلَهَا، فكانَ بذلكَ هُوَ الشقيَّ الذي باءَ بهذا الإثمِ العظيمِ، وذلكَ الذَّنبِ الشَّنيعِ، قالَ تعالَى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢]. وقال ﷺ: «إذِ انبعثَ أشقاهَا: انبعثَ لهَا رَجلٌ عَارمٌ عَزيزٌ مَنيعٌ في رهطِهِ مثل أبي زَمعَة» [أحمد].

ودعَا رسولُ اللهِ ﷺ عَليَّ بنَ أبي طَالبٍ يَومًا، وقالَ لهُ: «ألا أُحدِّثُكَ بأشقَى النَّاسِ؟» قالَ: بلى. قالَ: «رجلانِ: أحدُهمَا أُحيمرُ ثَمودَ الذي عَقرَ النَّاقةَ، والذي يَضربُكَ يا عَليُّ عَلى هَذا ـ يعني رأسَهُ ـ حتَّى تبتلَّ منهُ هذهِ ـ يعني لحيتَهُ ـ» [ابن أبي حاتم].

وكانَ قَدارُ بنُ سَالفٍ هذا، أحمرَ أزرقَ، يُقالُ: إنَّه ولدُ زَانيةٍ، وُلِدَ على فِراشِ سَالفٍ وهو ابنُ رَجلٍ يُقالُ لهُ: صيبان. وبعدمَا تَمَّتْ هذه المكيدةُ الخبيثةُ، علمَ صَالحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ بِهَا، فراحَ يُعاتِبُ قومَهُ، ويحذِّرُهم من عذابِ اللهِ لقتلِهِمْ نَاقةَ

اللهِ ومُخَالفةِ أمرِهِ واستمرَارِهِمْ على الكُفرِ والشِّركِ والعنادِ، ولكنَّ قومَهُ لم يُبالُوا بهذا الأمرِ وظَلُّوا على عِنادِهِمْ، وأخذُوا يسخرونَ في تَبجُّحٍ من صَالحٍ ومن تحذيرِهِ، قالَ تعالَى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

نَجَاةٌ.. وعَذَابٌ

فكَّر الزُّعماءُ التسعةُ بعدَ ذلكَ في قَتْلِ صَالحٍ، ودبَّرُوا مُؤامرةً لذلكَ، وهي أنْ يختبِئُوا لهُ في كهفٍ في الجبلِ، فإذَا مرَّ عليهمْ قتلوهُ دُونَ أنْ يَراهُمْ أحدٌ، فلمَّا دخلُوا الكهفَ، هدمَهُ اللهُ عليهم، فأهلكَهُمْ قبلَ قومِهِمْ بأيَّامٍ جَزاءَ نيَّتهم وفِعْلِهِمُ السَّيئِ، قالَ تعالَى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ [النمل: ٤٩ - ٥١].

ثُمَّ أوحى اللهُ لنبيِّه صَالحٍ أنَّ العذابَ نَازلٌ بقومِهِ بعدَ ثَلاثةِ أيامٍ، فأنذَرهُمْ صَالحٌ بذلكَ، وقالَ لهُمْ: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

ثُمَّ أخذَ صَالحٌ مَن آمنَ معهُ، وتركُوا ديارَ ثَمودَ، حتَّى لا يُصيبَهُم العذابُ، بينمَا كذَّبَ الكافرونَ هذا الأمْرَ وظلُّوا في ديارِهِمْ، فأصبحُوا يومَ الخميسِ - وهُو اليومُ الأوَّلُ - ووُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ، ثُمَّ أصبحُوا في اليومِ الثَّاني وقَدِ احْمَرَّتْ وُجُوهُهُمْ، وفي اليومِ الثَّالثِ أصبحُوا ووجوهُهُمْ مُسودَّةٌ، وفي صَبيحةِ اليومِ الرَّابعِ - يَومِ الأحدِ - قعدُوا ينتظرونَ ماذَا يحُلُّ بهم من العَذابِ والنقمةِ، فجاءتهُمْ صَيحةٌ من السَّماءِ من فَوقِهِمْ، ورَجفةٌ مِن الأرضِ مِن أسفلَ منهُمْ، فزهقَتْ أرواحُهُمْ، فأصبحُوا جُثثًا لا أرواحَ فيهَا ولا حياةَ.

قالَ تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].